

## الباب الثاني مكة وقريش في التاريخ واللغة

وتاريخ مكة الحقيقي يبدأ أيام قصي بن كلاب بن مرة القرشي الذي تولى أمر مكة حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي أما ما قبل ذلك فليس لدينا ما نعتمد عليه في إثباته أو نفيه غير روايات الإخباريين وهم إسلاميون أو مخضرمون ، والمدة بعيدة بينهم وبين هذه للعهود بخلاف الأمر في حالة قصي وقبيلة قريش التي استقرت في مكة ونهضت بها وخطت منها مدينة ذات مركز اقتصادي وديني وأدبي ممتاز وأصبحت في عهدها تتمتع بتوجيه عربي عام في أواخر القرن السادس وأوائل السابع حين ظهر الإسلام .

وبين قصي وظهور الإسلام لا تزيد عن مائة وخمسين عاماً وهي مدة كانت حال قريش فيها منفصلة في مكة ولا يمكن أن تسمى فيها الأحداث وبخاصة إذا قدرنا ما للذاكرة العربية من قوة وما لقيمة التمسك بالنصب ولحمة الدم من سلطان يجعل الناس يحتفظون بذكر آبائهم والأحداث التي ارتبطت بهم وقد يعطون ذلك بعض المبالغة ولكننا على أي حال نستطيع من مختلف الروايات أن نصور للوضع تصويراً نقرب به كثيراً من الحقيقة إن لم نصل إليها .

## الفصل الأول

### تاريخ مكة

ويرى لنا التاريخ أن مكة قد عرفت من أحقاب طويلة ممضة في القدم حتى قبل عهد إبراهيم عليه السلام فقد كانت الكعبة مثابة للناس قبل بناء إبراهيم وبالتحديد منذ أن هبط آدم من السماء وبنى فيها البيت ... ومن جهة أخرى فقد ثبت أن مكة قد استقبلت هجرات سابقة من بلاد العرب المختلفة تعددت فيها أنواع المهاجرين من أجناس البشر .

كما تدل الدراسات الجيولوجية التي أجراها الباحثون أن مكة وما حولها من مساحات تشمل جزيرة العرب التي كانت في عهد من عهود التاريخ المجهولة مروجاً خضراء أهلة بالسكان لأن غيوم الرياح الغربية الشمالية كانت تصل إلى الجزيرة العربية قبل أن تفقد رطوبتها لتتهال الأمطار على قممها العالية وتجري في وديانها الأنهار وتروى أراضيها وتمسق مروجها

غير أن كثيراً من المؤرخين اعتبروا أن هجرة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام إلى مكة بداية واضحة لتاريخ مكة لأن أهم ملابسات الهجرة وظروفها وردت واضحة في القرآن الكريم . والمعروف أن إسماعيل قدم مكة وهي إذ ذاك فلاة يثبت فيها السلم والمر وبها ناس يقال لهم ( العماليق ) وكان البيت أو الكعبة يومئذ ربوة حمراء .

وقصة إسماعيل وأمه هاجر وقدومهما إلى مكة معروفة ، فبعد أن ضاقت سارة زوجة إبراهيم عليه السلام بجاريته هاجر وابنها طلبت من زوجها أن يقصى الولد وأمه ، وقد كانوا جميعاً ينزلون في مشارف الشام فارتحل عنها ومعه إسماعيل وهاجر ليبلغا البقعة التي اختارها الله لمنزل

إسماعيل فيضع إبراهيم وديعته في ظل دوحه في بطن الوادي من مكة على خطوات من الریوة الحمراء حيث رفعت قواعد البيت فيما بعد : يقول تعالى :

" وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْنَا عَلَيْهَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ " سورة / ١٢٧-١٢٨

ثم عاد إبراهيم راجعا إلى داره واتبعت هاجر أثره قليلا ثم قالت إلى من تتركني وابني ؟ قال : " اللَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ " قالت :

" إِنَّمَا ظَنَنْتُ بِصَبْرِكَ اللَّهُ أَيْضًا اللَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ "

أجل لقد تركها إلى الله تعالى وقد رأينا قدرته جل وعلا تتجلى في هذا العالم الزاخر من ذرية إسماعيل ورأينا تلك الدوحة التي أظلته يوما تثبثق عنها أمة كان لها كياتها وكان لها دورها في فتح العالم وكشف حجب الظلام ونشر الدين وكانت هذه القلوب المؤمنة الموحدة ثمرة دعوته المباركة قال تعالى :

" رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ " إبراهيم / ٣٧

ولما اشتد بهاجر العطش وتصايح وليدها إسماعيل يبغى شربة ماء نظرت ما حولها وسعت في الأرض تبحث عن ماء تطفى به حرها وتروى غليل ابنها وتكرر سعيها وهرولتها في وسط الوادي بين جبلين هما ( الصفا والمروة ) حتى فعلت ذلك سبعا وعندها سمعت صوتا ثم خرج لها جبريل عليه السلام فاتبعته حتى ضرب برجله الأرض فظهر ماء فوق

الأرض فكانت ( زمزم ) بل كانت مكة وكانت هذه القبائل من عدنان ثم  
كانت قريش وكان بنو هاشم ومنها سطع نجم أضاء ثناء مشارق الأرض  
ومغاريها وكان الإسلام وكانت أعلامه وراياته التي خفقت فيما بعد في  
أكبر وأوسع بتاع للعالم .<sup>١</sup>

---

<sup>١</sup> اخبار مكة للأزرقى تاريخ مكة / لحمد السباعى

## الفصل الثاني قريش في اللغة

ولعله من المفيد أن نلقى الضوء على اسم قريش قبل أن نذكر أصل تجمعهم ولم يصل الباحثون لرأى حاسم فيما يتصل باسم قريش والطبري نص طويل<sup>١</sup> يفهم منه أنه اسم شخص بل اسم سمكة ربما كانت (طوطم)<sup>٢</sup>، قريش أو صفة أطلقت على بعض زعمائها الأولين مثل النضر بن كنانة، وقد أجمل الطبري ذلك في قوله :

" سميت قريش قريشاً بقريش بن يدر بن يخلد بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة، وبه سميت قريش قريشاً لأن عير بنى النضر كانت إذا قدمت قالت العرب : قد جاءت عير قريش : قالوا : " وكان قريش هذا دليل بنى النضر في أسفارهم وصاحب نصرتهم وكان له ابن يسمى بدرا " وقال ابن الكلبي :

" إنما قريش جماع نسب ليس بأب ولا أم ولا حاضن ولا حاضنة " وقال آخرون : إنما سمي بنوا النضر بن كنانة قريشاً ، لان النضر بن كنانة خرج يوماً على نادى فوق ، فقال بعضهم لبعض : انظروا النضر كأنه جمل قريش وقيل : إنما سميت قريش قريشاً بداية تكون في البحر تدعى القرش فشبه بنو النضر بن كنانة بها ، لأنها أعظم دواب البحر قوة وقيل : أن النضر بن كنانة كان لسمه قريشاً.

---

<sup>١</sup> الطبري ج ٢ / ١٨٧ ابن حزم - جمهرة أنساب العرب / ١٠ مصعب الزبيري نسب قريش / ١٢ ابن دريد الاستقاق / ١٨ أبو الفرج الأصبهاني الأغاني ج ١ / ١٢ الأزرقى ج ١ / ٦١ .  
<sup>٢</sup> طوطم من الطوطمية : عبادة بدائية يعتقد من الناس أنهم شيئاً معيماً - حيوان مثلاً من أصل واحد ويتخونه رمزاً محبوباً لهم ، ولهم طوطم عام وآخر فردي لكل إنسان في القبيلة (راجع د / على عبد الواحد وثى ) " للطوطمية " دار المعارف - مصر .

وقيل : " بل لم تزل بنو النضر بن كنانة يدعون بنى النضر حتى جمعهم قصى بن كلاب " ف قيل لهم : " قريش من أجل التجمع وهو النقرشى " .

فقال للعرب : " نقرش بنو النضر أى تجمعوا " .

أو قيل : " إنما قيل قريش ، أجل أنها تترشيت عن القارات " .

وعن محمد بن سعد : سميت قريش قريشاً ، من اجتمعت إلى الحرم من تفرقتها ذلك التجمع النقرشى ، قال عبد الملك : ما سميت هذا ولكن سمعت أن تصيبا كان يقال له القرش ولم يسم قريش قبله <sup>١</sup> .

وفى لسان العرب يقول ابن منظور : <sup>٢</sup>

" وقريش دابة فى البحر لا تدع دابة إلا أكلتها فجميع الدواب تخافها . وقريش قبيلة سيدنا رسول الله ﷺ أبوهم النضر بن كنانة بن خزيمه بن مدركة بن إلياس بن مضر فكل من كان من ولد النضر فهو قرشى دون ولد كنانة ومن فوقه " .

وفى حديث ابن عباس فى ذكر قريش قال : هى دابة تسكن البحر تأكل دوابه .

قال الشاعر :

وقريش هى التى تسكن البحر \* بها سميت قريش قريشاً

وقيل : " سميت بذلك لتقرشها " أى تجمعها إلى مكة من حوالىها بعد تفرقتها فى البلاد حين غلب عليها قصى بن كلاب وبه سمى قصى مجمعا .

وقيل : " سميت بقريش بن مخلد بن غالب بن نهر كان صاحب عيرهم " فكاتبوا يقولون : " قدمت عير قريش وخرجت عير قريش " .

وقيل : سميت بذلك لتجرها وتكسبها وضربها فى البلاد تبتغى الرزق .

<sup>١</sup> لنظر يقرت ومعجم البلدان ١٨٣/٥ - ١٨٥ .

<sup>٢</sup> لنظر : لخيار نكة . لأورقى ج ١ ص ٣٢ وما بعدها - معجم البلدان : لياتوت ( مادة كعبة ج ٨ ص ٤٦٢ وما بعدها ) .

وقيل : " سميت بذلك ، لأنهم كانوا أهل تجارة ولم يكونوا أصحاب  
ضرع " وزرع من قولهم : فلان نيقرشى المال أى يجمعه .

وقال سيبويه : " ومما غلب على الحى قريش " قال : " وإن جعلت  
قريشا اسم قبيلة معربى " قال غير بن الرفاع يمدح الوليد بن عبد الملك :

غلب المساميح الوليد سماحة \* وكفى قريش المتضلات وسادها

وإذا نشرت له التناء وحدته \* ورث المكارم طرفها وبلادها .

وكان يقال لقصى بن كلاب القرشى ولم يسن قريش قبله لحاز قصى

شرف مكة وأنشأ فيها دار الندوة وفيها كانت قريش تقضى أمورها .

ولما جمع قصى قريشا بمكة سمي مجمعا وفى ذلك يقول خذاعة بن

غاتم الجمحى يمدحه :

أبوهم قصى كان يدعى مجمعا \* به جمع الله القبانل من قهر .

هم نزلوها والمياه كليلة \* وليس بها إلا كهول بنى عمر .

ويقال : " من أجل تجمع قريش إلى قصى سميت قريش قريشا " .



## الفصل الثالث قريبته في النواحي

وتحق دعاء خليل الله إبراهيم فبارك الله في ذريتهما وتوسعت الأسرة الإبراهيمية العربية ، فقد صاهر إسماعيل جرحم .<sup>1</sup> وكانوا من العرب العاربة ، وبارك الله في ذرية إسماعيل حتى كان منه عدنان وتناقلت العرب العدنانية أنسابها وهو أكثر الأنساب العربية صحة وحفظا وتداولاً .

وكثر أولاد عدنان ، اشتهر منهم معدين عدنان وتبع في أولاده مضر . وتبع من أولاده فهر بن مالك .

وسمى أولاد فهر بن مالك بن النضر " قريشاً " وغلب هذا الاسم على جميع الأسماء فاشتهرت هذه القبيلة بـ " قريش " وأقر أهل العرب كلهم بعون نسب قريش ، والسيادة وفصاحة اللغة ، ونساعة البيان ، وكرم الأخلاق والشجاعة والفتوة ، وذهب ذلك مثلاً لا يقبل نقاشاً ولا جدلاً .<sup>2</sup>

قصى بن كلاب وأولاده :

ومن أولاد فهد قصى بن كلاب .

وظل أمر مكة لجرحم حتى غلبهم على ذلك خزاعة وكانت سدانة البيت فيهم إلى أن عظم شأن قصى بن كلاب وظهر فضله فانتقلت إليه واقتضت له قريش وأحلوا خزاعة من مكة وتم له أمر مكة ، وكان سيداً مطاعاً ، كانت إليه حجابة البيت وعند مفاتيحه فلا يدخل أحد إلا بإذنه وسقاهم

<sup>1</sup> قيل : إن جرحم كانت أولى القبائل العربية التي أقامت بمكة ، وقد استهواها للمقام هناك وجود ماء لا ينقطع ، وجاء في بعض الروايات أنها كانت هناك قبل أن يترك إبراهيم زوجته هاجر وابنه إسماعيل في هذا الولد .

<sup>2</sup> اقرأ التفصيل لسيرة النبوية لابن هشام ق أو كتب السيرة والأئمان

زمزد والرفادة والندوة التي يجتمعون فيها للمشورة ، والرأى واللواء فى الحرب ، فحاز شرف مكة كله .  
وتبيل فى اولاده عبد منائف ، وكان هاشم أكبر أبناء والده عبد منائف وكان كبير قومه ، وكانت عنده السقاية والرفادة وهو والد عبد المطلب جد الرسول ﷺ وقد ولى عبد المطلب السقاية والرفادة بعد عمه المطلب بن عبد منائف وشرف فى قومه شرقاً لم يبلغه أحد من أبانه وأحبه قومه وعظم خطره فيهم .

فيذكر ابن هشام أن قصى بن كلاب هو الذى غلب على أمر مكة وجمع قريش فيقول : قال ابن اسحاق : " فلما كان ذلك العام ، فعدت صوفه كما كانت تفعل وقد عرفت ذلك لها العرب وهو دين فى أنفسهم فى عهد جرهم وخزاعة وولايتهم . فاتاهم قصى بن كلاب بمن معه من قومه من قريش وكنانة وقضاعة عند العقبة " ، فقال : " لنحن أولى بهذا منكم فقاتلوه ، فاقبل الناس قتالاً شديداً ثم انهزمت صوفه ، وغلبهم قصى على ما كان بأيديهم من ذلك " .

#### قصى يقاتل خزاعة ويغى بكو :

وانحازت عند ذلك خزاعة وبنو بكر عن قصى ، وعرفوا أنه سيمنعهم كما منع صوفه وأنه سيحول بينهم وبين الكعبة وأمر مكة . فلما انحازوا عنه باداهم وأجمع لحربهم ، وخرجت له خزاعة وبنو بكر فالتقوا ، فاقبلوا قتالاً شديداً ، حتى كثرت القتلى فى الفريقين جميعاً ، ثم إنهم تداعوا إلى الصلح وإلى أن يحكموا بينهم رجلاً من العرب ، فحكموا بعمر ابن عوف بن كعب بن عامر بن لبيب بن بكر بن عبد منائف بن كنانة ، فقضى بينهم بأن قصياً أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة ، وأن كل دم

أصابه قصى من خزاعة وبنى بكر : موضوع يشدخه تحت قدميه ، وأن ما أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة وقضاعة . ففيه الدية موداة ، وأن بخلى بين قصى وبين الكعبة ومكة .  
فسمى بعمر بن عوف يومئذ : الشداخ ، لما شدخ من الدماء ووضع منها .

### قصى يتولى أمر مكة :

قال ابن إسحاق : " قولى قصى البيت وأمر مكة " ، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة وتملك على قومه وأهل مكة فملكود . إلا أنه قد أقر للعرب ما كانوا عليه ، وذلك أنه كان يراه ذينا فى نفسه لا ينبغي تغييره ، فأقر آل صفوان وعدوان والنساء ومرة بن عوف على ما كانوا عليه حتى جاء الإسلام فهدم الله به ذلك كله .

فكان قصى أول بنى كعب بن لوى أصاب مكة أطاع له به قومه ، فعانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة ، والندوة : واللواء . فحاز شرف مكة كله وقطع مكة وباعا بين قومه فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التى أصبحوا عليها .

ويزعم الناس أن قريشا هتأبوا شجر الحرم فى منازلهم فقطعها قصى بيده وأعوانه فسمته قريش . مجمعا لما جمع من أمرها وتيمنت بأمره ، فما تنكح امرأة ، ولا يتزوج رجل من قريش ، وما يتشاورون فى أمر نزل بهم ولا يعقدون لواء كحرب قوم من غيرهم إلا فى داره . يعتقد لهم بعض ولده ، وما تدرع جارية إذا بلغت أن تدرع من قريش إلا فى داره . يشق عليها فيها درعها ثم تدرعه ، ثم ينطلق بها إلى أهلها .

فكان أمره فى قومه من قريش فى حياته ، ومن بعد موته كالدين المتبع لا يعمل بغيره . واتخذ لنفسه دار الندوة ، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ، ففيها كانت قريش تقضى أمورها .

## قال ابن هشام : قال الشاعر :

قصي لعمر كان يدعى مجمعا \* به جمع الله القبائل من فهر .  
قال ابن إسحاق : " حدثني عبد الملك بن راشد عن أبيه " قال :  
" سمعت السائب بن ضباب صاحب المقصورة يحدث أنه سمع رجلا  
يحدث عمر بن الخطاب وهو خليفة حديث قصي بن كلاب وما جمع من  
أمر قومه وإخراجه خزاعة وبنى بكر من مكة ، وولايته البيت وأمر مكة ،  
فلم يرد ذلك عليه ولم ينكره .<sup>١</sup>

## بنو هاشم :

وكان بنو هاشم واسطة العقد في قريش ، وإذا قرأنا ما حفظه التاريخ وكتب السير  
من أخبارهم وأقوالهم ( وهو قليل من كثير جدا ) ، اسند لنا به على ما كان يمتاز به  
هؤلاء من مشاعر الإنسانية الكريمة ، والاعتدال في كل شيء ورجاحة العقل وقوة  
الإيمان بما للبيت من مكانة عند الله ، والبعد عن الظلم ومكابرة الحق ، وعلو  
الهمة ، والعطف على الضعيف والمظلوم ، والسخاء والشجاعة ، وما تشتمل عليه  
كلمة " الفروسية " عند العرب ، من معان كريمة وخلال حميدة ، السيرة التي تليق  
بأجداد الرسول الكريم ﷺ وتتفق مع ما كان يفضلهُ ويدعو إليه من مكارم الأخلاق ،  
غير أنهم عاشوا في ومن الفترة وسايروا أتباع قومهم ، في عقائد الجاهلية  
وعباداتها .

<sup>١</sup> الروض الأنف للهبل في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ح ١ ص ١٤٧ - ١٤٩ .

## الفصل الرابع

### مركز مكة الديني

تضرب مكة في القدم إلى إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه وهي قصة البلاد الحجازية ولم يكن يلقى أحد قبل إبراهيم وابنه إسماعيل لأنها واد غير ذي زرع اللهم للصالح والهمسوس فقد كانوا يسكنون الحبوب في شمالي مكة ثم جاؤوا إسماعيل وأمه لما أتاح الله لهما بئر زمزم وكان إبراهيم يختلف إليهما من حين لآخر إذ كان يسكن فلسطين ثم أمره الله أن يبني البيت الحرام ويجعله "مصلى" :

" وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ

السُّجُودِ "

الفرء / ١٢٥

" وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ اضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَكَ وَإِنَّا مُتَسَلِّمُونَ وَتَبَّ عَلَيْكَ إِنَّكَ أَنْتَ الثَّوَابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ "

الفرء / ١٢٦ - ١٢٩

فلما أتم بناءها أمر الله إبراهيم أن ينادى الناس ليحجوا هذا البيت ويقصدوه بالتعظيم .

" وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيُشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذَكَّرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَانِسَ الْفَقِيرَ "

الحج / ٢٧ - ٢٨

## مركز مكة السياسي :

كان يحكم مكة الأشراف مجاوروا البيت الحرام وكانوا يتولون خدمة البيت وقاصديه فكاتوا يحكم مركزهم الدينى مهيبين فى عين الناس لا تتناول إليهم العيون ولا تتال منهم الظنون لا يحاربون ولا يتحاربون من دخل بلادهم كان أمنا حتى لقد يلقي الرجل قاتل أبيه أو ابنه أو أخيه وهو بالحرم فلا يرفع له رأسا ولا يضر له شرا احتراماً للبيت للحرام والبلد الحرام لهذا مرع الناس من كل فج إلى مكة يطوفون حول للكعبة ويسعون بين الصفا والمروة ويقبلون الحجر الأسود حيث يمثلون الطاعة والإقرار بالعبودية لله ويؤدون مناسكهم لمنين مطمئنين وأهمها الوقوف بعرفات وهو أشبه بمؤتمر هام وهناك كاتوا يختلطون ويتزاحمون على اختلاف لهجاتهم وتباين قبائلهم .

## مركز مكة التجارى :

لا عجب أن يكون بلد كمكة قبلة للعرب ومفخرهم وملاذهم ومتابيتهم انحرمة فيها لا تقطع والرحلة إليها دائمة لا تمتنع تضرب إليها أباط الإبل يستحثها السوق إليها وتساق إليها القوافل فلا يرثى لها من حضن أو كلاله حتى تصل إلى غايتها لا عجب أن تكون سوق التجارة فيها ناشئة وصفقتها رابحة غير خاسرة وإذا كان رواج التجارة أو كسادها يرجع إلى ما يسمى " بالعرض والطلب " فإن تجارة مكة لا يتطرق إليها الكساد والبوار بل يقم كل من يؤمها للحركة الدائبة فيها ولمركزها الجغرافى الذى جطها بحاجة دائمة إلى مدد غيرها ناهيك بالأنوف التى كانت تفتد إليها من للرحلات المتعددة شتاء إلى اليمن وصيفاً إلى بصرى وخوران وربما ضربوا إلى الحبشة وفارس ، كل أولئك جعل لها مركزا تجاريا ممتازا .

فكانت عنايتها بالتجارة تفوق كل شرفانهم وذو المكاة فيهم يتقدمون صفوف القوافل اللغائية والرابحة بين مكة والبلدان التي لها معها علامة تجارية ولذا نزل الله فيهم سورة آيات عن حرصهم على التجارة وعنايتهم بها وسميت باسمهم :

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعَ كَثِيرَةً وَلِئَلَّامُنَّاسٌ يَتَذَكَّرُونَ " **سورة النحل** : ١٠١

وقال تعالى :  
" أُولَئِكَ يَرْزُقُونَ آيَاتِنَا إِنَّا جَعَلْنَا حَرْمًا لَكُمْ وَلَسْنَا نَمُنُّ بِكُمْ لَمَّا جَاءَ الْوَعْدَ " **سورة النحل** : ١٧

وقالوا إن تتبع الهذى متكثرت من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجنب إليه مشركنا كل شيء رزقاً من لدنا " **سورة النحل** : ١٧

وكانوا بحكم مركزهم الدينى محترمين لا يتعرض لهم أحد بسوء لى لهم وترحالهم فزكت تجارتهم واتسعت مواردهم واشتدت بها عنايتهم .  
فما جاء الإسلام أباح التجارة فى الحج فليس هناك حرج فى ذلك :  
" لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْفَرِ الْحَرَامِ وَادْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ الضَّالِّينَ " **سورة البقرة** : ١٩٨

وكانت أشهر الحج عندهم أشهر حرماً ، يعقدون فيها أسواقهم التجارية بحاتب البيت وداخل حدود الحرم والناس يهرعون إلى هذه الأسواق ويؤمنونها من جهات الجزيرة البعيدة ليقتضوا منها حاجتهم ، ويتروءوا لقومهم ، وقد ذكرت أسواق كانت فى مكة يستدل بها على ما وصلوا إليه من مدنية وتطور . منها سوق العطارين ، وسوق الفاكهة ، وسوق الرطب ، وكان مكان للحمامين والحلاقين وكانت رجة واسعة

كانت تباع فيها الحنطة والسمن والعسل والحبوب يحملها التعير من الخارج وكانت اليمامة ريف مكة<sup>١</sup>

وكان زقاق للحدانين ، وسوق للبزازين . وكانت لأهل مكة منزهات ينتجعها المكيون في الأمانل ، من شهور القيظ وكانت المتنعمون فيهم يشتون بمكة ويصطافون بالطائف ، وكان كثير من فتيانهم تشتهر بالأناقة في الحياة والتجمل في اللباس وكانت كسوة بعضهم تقوم عينات من الدراهم ولما نشطت الحركة التجارية في مكة ، فكان تجارها يتجولون في بلاد كثيرة من إفريقيا وأميا ، ويحملون من كل بلد ما يستطرف ويستظرف فيها ، وما تستد إليها الحاجة في بلادهم .

فكانوا ينقلون من أفريقيا الصمغ ، والعاج ، والتبر ، وخشب الأبنوس ومن اليمن الجنود والبخور والثياب ، ومن العراق التوابل ومن حاصلات الهند الذهب ، والقصدير ، والحجارة الكريمة ، والعاج وخشب الصندل والتوابل والزعفران ، ومن مصر والشام الزيوت والغلال والأسلحة والحريير والخمور

وكانوا يرسلون إلى بعض الملوك والأمراء ما يستظرف من بضائع مكة وكان من أعجب ما يختار منها الأدم ، وهي الجنود ، كما فعلت قريش حين بعثت إلى النجاشي . ملك الحبشة . عبد الله بن ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل ، ليستردا من هاجر من المسلمين إلى الحبشة ، فأرسلوا معها من الهدايا ما يستظرف من متاع مكة وكان الأدم .

وكانت من النساء تاجرات ، لهن نشاط في إرسال القوافل التجارية إلى الشام وغيرها ، اشتهرت فيهن خديجة بنت خويلد ، والحنظلة أم أبي جهل يشير إلى ذلك

<sup>١</sup> لذلك لما منع ثمامة بن ثلال . سيد بني حنيفة . حمل الحنطة إلى مكة بعد ما سلم ، جهت قريش وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يكتب إلى ثمامة يخلى إليهم حمل الطعام . ففعل رسول الله ﷺ ( زاد المعارج / ٢٧٧ رواه مسلم في صحيحه ) .

قوله تعالى :

" للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن " ن.ا. ٢٧

### الالة الاقتصادية والمكاييل :

وهذا فاقت مكة في التجارة وأثرى كثير من أبنائها وتضخمت رؤوس أموالهم ، يدل على ذلك أن عير قريش التجارية التي كانت عائدة من الشام عند غزوة بدر بلغت ألف بعير ، وبلغ المنقول على أئقالهم خمسين ألف دينار .

وكانوا يتعاملون بالعملة الرومانية البيزنطية والعملة الإيرانية الساسانية وكانوا يستعملون الموازين في أسواقهم والمكاييل منها الصاع والمد والطل والأوقية والمنقال ويعرفون من مفردات أئقالهم أنواعا كثيرة وعندهم علم بالحساب اعتمد عليه القرآن في ذكر السهام والقرانض<sup>١</sup>

### الصناعات والثقافة والآداب في مكة :

ولم تكن للصناعات مكتاة كبيرة عند أهل مكة ، بل كان عندهم نوع احتقار لها ، وتعتبر منها ولم يباشرها في عامة الأحوال إلا الموالى وأبناء العجم إلا أنه قد وجد بعض صناعات كانوا مضطرين إليها ، ومارسها بعض أبناء مكة والعرب ، فقد روى أن حباب بن الأرتث كان قينا يعمل السيوف ، وكانوا يلجأون إليه في صناعة البتار وكان لا بد منه إلى عمال من الروم أو الفرس . وكان منهم كتاب يعرفون الكتابة والقراءة وأن كانت الأمية عالية عليهم ولذلك سماهم القرآن بـ " الأميين " فقال تعالى :

" هو الذي يغث في الأميين رسولا منهم " ن.س. ٢٧

<sup>١</sup> نفس المرجع السابق ١٠١ - ١٠٢ .

وكانت مكة وأهلها مثلاً في الجزيرة العربية في سلامة الذوق والظرف والأناقة شأن العواصم والمدن الرئيسية في كل قطر ، عريقة في الآداب ، أما لغتهم فكانت هي الميزان وهي المرجع وعليها الاعتماد في سائر أطراف الجزيرة ، وكانوا أبلغ العرب وأفضلهم وأصحهم تعبيراً ونطقاً ، وأبعدهم عن الهجنة أو الرطانة وتأثير الاختلاط بالعجم ، وكان حظهم من تناسب الأعضاء واعتدال الخلق والخلق والالتزام وحسن الشارة ، أكثر من النواحي الآخرة حتى كانوا شامة بين الناس يجمعون بين الصفات التي يسمى مجموعها بـ " الفتوة والمرورة " وتغنى بها شعراء العرب وخطباؤهم لذلك كانوا أئمة الناس في الشر والخير .

وكان أكثر عنايتهم بالإنسان وأخبارهم ثم بالشعر ثم بالنجوم والأنواء وشيء يسير من الطب يقوم على التجربة ، والتناقل وشيء كثير من حلية الخيل والمعرفة الدقيقة بأعضائها وصفاتها والتفرس بالرجال والخيل وشاعت فيهم طرق للعلاج ، كالكي ، والبتر ، والفصد ، والحجامة وتناول الأدوية .

### القوة الحربية :

أما قوة مكة الحربية ، فكانت قريش تؤثر السلم والهدوء في عامة الأحوال إذا تركت ، وشأنها شأن الشعوب والمجتمعات التي أكبر اعتمادها في الكسب والمعاش على التجارة ، ويسير القوافل ، وتنظيم الأسواق ، وتوجه الرواد من كل صوب إلى بلدها ، والتقاءهم التقاء يقيدها إجلالاً دينياً وقائدة اقتصادية ، ويدر عليها الأرزاق الكريمة ، وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله تعالى " "

" فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَتَّهُمْ مِنْ حُوبٍ " قريش / ١٠٣

لذلك كانت قريش ما لم تتحد عقيدتها ولم تثر غيرتها اندينية أو القبلية تؤمن بمبدأ " التعايش السلمى " ولكنها رغم كل ذلك كانت قوة حربية يحسب لها الحساب ، وكانت شجاعتها مضرب المثل ، وكانت مشهورة بانفروسية العربية و " الغضبه المضربه " معروفة فى جزيرة العرب وادابها وأمثالها .

ولم تكتف قريش بقوتها الذاتية فى الحرب ولكنها تستخدم قوة الأخابيش وهم بطون من القبائل العربية الضاربة حول مكة ، من كنانة وخزيمة بن مدركة ، وخزاعة تحالفوا مع قريش ، وكان لقريش عدد كبير من العبيد والموالي ، الذين كانوا يقاتلون فى صفوفها ، فكانت تستطيع أن توجه إلى القتال بضعة آلاف مقاتل وقد استطاعت أن تجمع عشرة آلاف مقاتل فى غزوة الأحزاب ، وهى أكبر قوة حربية عرفها تاريخ الجزيرة العربية فى العصر الجاهلى ١ .

### أنتو هذه الأحوال فى الحقبة النبوية :

مركز مكة الدينى والمياسى والتجارى الذى رفعها إلى مقام الزعامة فى الأمة العربية جعل للفتها الزعامة على لغات العرب أيضا فالعرب الذين كانوا يؤمنون مكة فى المواسم ويختلطون بأهلها ثم يتقلبون إلى ديارهم والخائفون الذين كانوا يلجئون إلى حمايتهم فيكون لهم فيها الملاذ الأعلى والحمى المنيع والتجار الذين كانت تسبل بأعناق مطيهم الأباطح غادين رانحين كل أولئك ما كانت مهنتهم لتقتصر على ما إليه قصدوا بل كانوا فوق ذلك يتخرجون فى مدرسة مكة اللغوية فتتصف أسنتهم وتصل لهجاتهم وتتهذب لغتهم فإذا ارجع أولئك البعوث إلى أقوامهم رجعوا بفضل كبير وتجديد فى لغتهم عظيم ذلك أن لغة مكة كانت هى

١ السيرة النبوية للندوى / ١٠٦ & ١٠٧ .

المثل الأعلى للغاتهم لما علمت من مكاتنها الدينية والسياسية والتجارية تلك المنزلة التي مكنت لأهلها أن يختلطوا بكل القبائل فيأخذوا أحسن ما عندهما من ألفاظ فيها كثير من الحوش أو المبتذل أو الغريب الذي يكدر لغتهم ويجهد خاطر .

هذه العملية عملية المحو والإبادة في لغة قريش أو عملية التهذيب والتصنيع المتكررة جعلتها سهلة المنطق خفيفة على السمع حسنة الجرس فكانت المثل الأعلى للغات العربية وكانت لها عليها فضل الأستاذية فلا عجب أن كانت هذه المنزلة في الجاهلية مرشحة لها أن تكون سيده اللغات في الإسلام نزل بها القرآن الكريم فجعلها لغة الدين والطم إلى اليوم .<sup>١</sup>

### كبرى مدن الجزيرة وعاصمتها الروحية والاجتماعية :

وبهذا المركز الديني والمكانة الاقتصادية وقيادة النشاط التجاري والتقدم في المدنية والآداب أصبحت مكة كبرى مدن الجزيرة العربية وبدأت تنافس صنعاء اليمن في زعامة الجزيرة بل إنها تفوقت عليها بعدما حدث باليمن من استيلاء الحبشة عليها وتملك الفرس لها في منتصف القرن السادس المسيحي وفقدت مملكة الحيرة ومملكة غسان الشيء الكثير من العظمة والأبهة ، فأصبحت مكة بعد ذلك كله هي عاصمة جزيرة العرب الروحية والاجتماعية من غير منافس ولا مشارك .<sup>٢</sup>

<sup>١</sup> مجلة منبر الإسلام - للعدد ١٢ لسنة ٢٢ ذو الحجة ١٣٩٤ هـ سبتمبر ١٩٧٤ م .

<sup>٢</sup> السيرة النبوية للدوي - ١٠٧ .